جامعة ابن طفيل
كلية اللغات و الآداب و الفنون
القنيطرة

شعبة اللغة العربية و آدابها
مسلك الدراسات العربية
الفصل الثالث : مادة المعجم

المدرسة الصوتية

الحصة الثامنة و التاسعة

مقدمة

حظيت الدراسات الصوتية باهتمام علماء اللغة المتقدمين فتناولنا النحويون في خاتمة مصنفاتهم ، و المعجميّون في مقدمة معاجمهم . و يبدو أن اهتمام المعجميين بالدراسات الصوتية مرده إلى أن صناعة المعاجم في أصلها إنما انبثقت من حقيقتين ذاتَيْ صلة بالأصوات اللغوية ؛ إحداهما أن المعاجم اللغوية سجِلٌّ لكلمات اللغة التي تعد الأصوات مادتها الحقيقية . و الثانية أن المادة المعجمية اتكأت كثيرا في ترتيبها و عرضها على معطيات علم الأصوات ، بل طبعت منهجية بعض المعاجم اللغوية كالعين و البارع. و لعل أبرز مثال على الحقيقة الأولى ما ذهب إليه ابن جني في الخصائص حين حد اللغة بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، و معنى هذا الكلام أن الأصوات منفردة لا تفيد إلا إذا ألفنا بينها .

بالرجوع إلى تاريخ المعاجم نجد أن النواة الأولى لتأليف المعاجم كانت في غريب القرآن مع الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، الذي عُني بتفسير الألفاظ الغريبة في القرآن الكريم . ثم تطور التأليف إلى تدوين الألفاظ التي تتحد موضوعاتها في كتب مستقلةكالخيل و الإبل و الطير . إلى أن أتى الخليل بن أحمد الفراهيدي فألف كتابه العين معلنا بذلك عن أول مدرسة معجمية عربية سماها الدارسون المدرسة الصوتية .

لقد سميت هذه المدرسة بذلك الإسم لأنها تعتمد مخارج الأصوات وسيلة لتصنيف مادتها المعجمية ، فضلا عن كون أنصارها يضعون الكلمة و جميع تقليباتها تحت أبعد الحروف مخرجا . فكلمة عجل مثلا تتكون من ثلاثة أحرف هي (ع ج ل) ، و إذا طبقنا عليها نظام التقليبات - الذي سنتطرق إليه لاحقا - سنحصل على ست صور ، و كل هذه الصور توضع تحت أبعد حروفها مخرجا و هو العين .

و تجدر الإشارة إلى أن دراسة المخارج النطقية في هذه المدرسة قد اتكأت على ما أثبته روادها في مقدمات معاجمهم من دراسات صوتية وصفوا فيها المخارج النطقية ، ثم ترتيبها بحسب الأبعد مخرجا .

و بعد الاطلاع على مجموعة من الدراسات التي بحثت في المعاجم العربية و طرق ترتيبها ، و بعد الاطلاع كذلك على معاجم هذه المدرسة ، انتهينا إلى اختيار أهم معاجمها و هي : العين و البارع ثم تهذيب اللغة ، و لتكن البداية بأولها تأليفا .

1 - معجم العين

يعد كتاب العين باكورة التأليف المعجمي عند العرب ، و الدليل على ذلك أن اللغة العربية لم تعرف مؤلفات في القرن الثاني الهجري جمعت موادها اللغوية في إطار معجم (قاموس) بالمعنى الذي نعرفه سوى كتاب العين . أما ما كتبه أبو عمرو بن العلاء و الأصمعي و ابن الأعرابي و غيرهم آنذاك ، فلم يعْدُ أن يكونومجرد رسائل لغوية . و أهم ما يميزه - عدا نظامه - أن مؤلفه لم يجمع مفرداته عن طريق استقراء ألفاظ اللغة و تتبُّعِها في مؤلفات السابقين ، و إنما جمعها من شفاه الرواة و حصرها بطريقة منطقية رياضية .

1. 2. منهجه

لم يجد الخليل (100ه -175ه) في ما بين يديه من رسائل لغوية صغيرة منهجا يُبْلغه غرضه فاضطر إلى استبعادها و التفكير العميق في منهج جديد صالح له . و أخيرا اهتدى بذكائه و فطرته إلى الحقيقة الراسخة ، فقد رأى أن اللغة العربية تتألف من 29 حرفا ، لا تخرج عنها أي كلمة سواء أكانت اسما أم فعلا أم حرفا ، و أن جميع مفردات اللغة من هذا النمط . و ما دام الأمر كذلك فإن اللغة بتراكيبها المختلفة و مفرداتها المتعددة لا يمكن أن تكون إلا أجزاء من هذه الحروف المحصورة . و بهذا يمكن استقصاء جميع الكلمات العربية .

و عليه فالحقيقتان الأساسيتان في منهج الخليل هما :
1- انحصار الحروف في 29 حرفا .
2- انحصار الأبنية بين الثنائي و الخماسي .
و بهذا تكون الطريقة التي ابتدعها الخليل بن أحمد مدرسة من أكبر المدارس المعجمية في مضمار التأليف اللغوي لما تميزت به هذه الطريقة من خصائص و سمات افتقرت إليها المدارس المعجمية الأخرى ، و تنبني هذه الطريقة المبتكرة على الأسس التالية :

1.2.1. الأساس الأول : ترتيب الحروف / الأصوات

إن أول ترتيب سجلته معاجم اللغة للأصوات اللغوية وفق مخارجها هو ترتيب الخليل بن أحمد الفراهيدي في كتاب العين ، الذي رتبها بدءا من أعمقها مخرجا . و قد بدا له أن العين هي أدْخَلُ الأصوات و أعمقها بعد إن استثنى الهمزة لما يعْتَوِرُها من تسهيل و إبدال .
و كما هو معروف ، فإن الترتيبين اللذين كانا بين يدي الخليل هما : الترتيب الأبجدي الذي اعتمدته المعاجم غير العربية و السابقة للعين ، و الترتيب الألفبائي الذي اعتمدته بعض المعاجم التالية للعين . فالأول يبتدئ بالهمزة التي أثبتت الدراسات الحديثة أنها الأعمق مدخلا ، لكن رغم ذلك وضعها الخليل في الأخير تعسفا ، لأنها في نظره لا تستقر على صوت واحد ؛ إذ سرعان ما تتبدل إلى حرف مد كما هو الحال في " شؤم و شوم ، ذئب و ذيب " . أما الثاني ليبتدئ بالألف الذي ليس له مخرجا ، و لما فاته هذا الأول كره أن يبدأ بالثاني فبدأ بحرف العين .
فالخليل الذي يعيش في جو الأصوات و الأنغام في قراءة القرآن و في تفعيلات العَروض ، و في ألحان الموسيقى و إيقاعاتها ، يبتكر نظاما جديدا قائما على الأصوات التي جاءت على الترتيب التالي :
/ ع ، ح ، ه ، خ ، غ ، ق ، ك ، ج ، ش ، ض ، س ، ز ، ط ، ت ، د ، ظ ، ذ ، ث ، ر ، ل ، ن ، ف ، ب ، م ، و ، ا ، ي ، ء / .
أما مخارج هذه الأصوات في هذه المدرسة المعجمية فنجده عند الخليل مرتبة من الأبعد مخرجا إلى الأقرب على النحو الآتي :
أ . الحروف الحلقية : ع ح ه خ ع
ب. الحروف اللهوية : ق ك
ج . الحروف الشجْرية : ج ش ض
د . الحروف الصفيرية : ص س ز

ه . الحروف النطعية : ط د ت
و . الحروف اللثوية : ظ ذ ث
ز . الحروف الذلقية : ر ل ن
ح . الحروف الشفوية : ف ب م
أما (و ، ا ، ي ، ء) فلم يجعل لها مخرجا و اعتبرها حروفا هوائية .
و اطمأن الخليل إلى هذا النظام و اتخذه أساسا له في ترتيب كتابه ، و سمى كل حرف من هذه الحروف كتابا . و اشتهر هذا المعجم باسم كتاب العين لاستهلاله به على عادة العرب في كثير من أسمائهم ، كما يتضح جليا في كثير من أسماء سُوَر القرآن الكريم .

1 . 2 . 2 . الأساس الثاني : ترتيب الأبنية

يرى الخليل في مقدمة كتابه أن أبنية اللغة العربية تنحصر بين الثنائي و الخماسي و ذلك على الشكل التالي :
الثنائي : و هو ما تألف من حرفين صحيحين مثل (بل ، ما ، هل) أو ما شُدِّد حرفه الثاني مثل (مدّ ، شقّ)
الثلاثي : و قسمه إلى صحيح و معتل ، فالصحيح ما تكون من ثلاثة أحرف كلها صحيحة ؛ بحيث لا يكون في هذه الحروف ألف أو ياء أو واو مثل (كتب ، شرب ، ضحك) . أما المعتل فهو ما كان أحد حروفه الأصلية حرف علة من قبيل : سعى ، وعظ ، قال . أما اللفيف فهو ما اجتمع فيه حرفا علة ، سواء كانا مقرونين مثل : طوى أو مفرومين مثل : وعى .
الرباعي : ما وقع على أربعة أحرف صحيحة و ذلك كما في : جمهر ، بعثر ، دحرج .
الخماسي : ما وقع على خمسة أحرف صحيحة مثل : سفرجل ، فرزدق .
و يتكرر هذا التقسيم للأبنية في كل حرف من حروف المعجم .

1 . 2 . 3 . الأساس الثالث : نظام التقليبات

و هو منهج رياضي دقيق استطاع أن ينجز به الخليل مهمة حصر مواقع الحروف من المادة اللغوية . و بهذه الطريقة رأى الخليل أن الكلمات الثنائية تتصرف على وجهين (قد ، دق) و الثلاثية على ستة أوجه (سلم ، سلم ، لمس ، لسم ، ملس ، مسل) ، أما الرباعية فتصرف على 24 وجها ، و 120 وجها بالنسبة إلى الخماسي .

و قد استعمل تقليب الكلمات ليكون طريقة إلى إحصاء جميع الكلمات العربية المستعملة و المهملة و التي وصلت إلى (12 مليون) اثني عشر مليون كلمة .

2 . طريقة البحث عن الكلمات في العين

عند البحث عن الكلمات في معجم العين نسلك الخطوات التالية :
أ . معرفة الترتيب الصوتي الذي وضعه الخليل .
ب . تجريد الكلمات من الحروف الزائدة .
ج . تحديد بناء أو وزن الكلمة المقصودة .

خلاصة

لقد كان غرض الخليل في هذا المعجم هو استقصاء جميع مفردات اللغة ، و قد تأتى له ذلك بالمنهج الرياضي الذي ابتكره و تبناه في هذا المعجم . و عليه فما هي المعاجم التي نسجت على منواله ؟

المحور الثاني : المعاجم التي سارت على نهج الخليل

1 . معجم البارع لأبي علي القالي

يعتبر البارع في اللغة أول معجم ظهر في بلاد الأندلس إبان القرن الرابع الهجري على يد مؤلفه أبي علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون القالي البغدادي ، و ترجع أهميته الأولى إلى أنه أول معجم عربي عرفته الأندلس .

التزم القالي في هذا المعجم طريقة الخليل في الترتيب ، و استفاد من العين كثيرا و زاد عليه ألفاظا عدها الخليل مهملة فبين استعمالها ، و أكثر من الشواهد و النّقول من كتب اللغة حتى صار معجما ضخما في غزارة مواده و استيعابه ، حيث بلغت أوراقه ما يقارب خمسة آلاف ورقة .

1. 1 . منهجه في الترتيب

رجع القالي إلى ترتيب الحروف بحسب مخارجها كما فعل الخليل ، و لكنه لم يتبعه تماما بل أدخل عليه كثيرا من التغييرات . فلم يقم كتابه على ترتيب الخليل للمخارج بل على كتاب سيبويه مع بعض الخلاف الطفيف .
و بدأ القالي ترتيبه للحروف بالأبعد في الحلق و هي الهاء و ذلك لأن مخرجها من أقصى الحلق و يقول في هذا : " و تقديمي للهاء و وضع العين بعدها لا أريد به أنهما متعاقبان ، بل أريد أن الهاء مقدمة على العين فقط . و ليس هناك ما يدل على أنهما متصلان في الترتيب أو منفصلان بحرف أو أكثر " .
هذا بالإضافة إلى أنه كان أدق في وضعه (ل ر ن) قبل (ظ ذ ث) بخلاف الخليل الذي وضعها بعد (ظ ذ ث) ، مع أن (ظ ذ ث) أصوات من بين الأسنان و مخارجها متقدمة في الفم عن اللام و الراء و النُّون ، كما أن القالي يخالف الخليل بن أحمد في وضعه (ط د ت) قبل (ص ز س) ، و يخالفه أيضا في ترتيب بعض الحروف داخل بعض المجموعات .

1 . 1 . 2 . ترتيب الأبواب

و قد جاءت عند القالي على الشكل التالي :
أ. الثنائي المضاعف : جاعلا فيه الرباعي المضاعف (زلزل ، صرصر)
ب . الثلاثي الصحيح : و هو ما تكون من ثلاثة أحرف صحيحة (ضرب ، خرج)
ج . الثلاثي المعتل : أي الذي يشتمل على حرف علة .
د . الحواشي و الأعشاب : ذكر فيه أسماء الأصوات و محاكاة الطيور و الحيوانات .
ه . الرباعي : دحرج ، هلمع .
و . الخماسي : سفرجل

1 . 1 . 3 . نظام التقاليب

ملأ القالي هذه الأبواب بالتقاليد على نمط الخليل دون أدنى تغيير ، فهو يقلب المادة اللغوية على جميع الأوجه . و كان الغرض من هذه التقليبات هو استيعاب و حصر كلام العرب ، ثم معرفة المستعمل منه و معانيه .

1 . 2 . الأسس التي اعتمدها القالي

- اعتماده نظام الإحالة بغية الدقة و الضبط و الأمانة .

- احتواء المعجم على مجموعة من الشواهد .
- اعتماده على مصادر عدة : كتاب النوادر لأبي زيد الأنصاري ، كتاب الخيل و الإبل للأصمعي .... إلخ
- الضبط بالشكل .

2- معجم تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري

يعد هذا المعجم موسوعة لغوية ضخمة هدَفَ من ورائه الأزهري تخليص اللغة مما أصابها و دخلها من الشوائب و الأخطاء على يد سابقيه و معاصريه ، كالتصحيف و التحريف و نحوهما ، و يدل على ذلك عنوان كتابه تهذيب اللغة . و قد أفصح عن مقصده هذا فقال : " سميت كتابي تهذيب اللغة ، لأنّي قصدت بما جمعت فيه نفي ما أُدخِلَ في لغة العرب من الألفاظ التي أزالها الأغبياء عن صيغتها و غيّرها الغتَم عن سننها ، فهذبت ما جمعت في كتابي من التصحيف و الخطأ بقدر علمي ".

و قد تميز تهذيب اللغة بمقدمته التي تناولت المعاجم المتقدمة و نقدها ، كما تميز بكثرة مواده اللغوية ، و توسعه في شرحها بإيراد الشواهد القرآنية مع الإشارة إلى بعض القراءات و الأحاديث ، و الآثار ، و الأشعار ثم أقوال الفصحاء و غيرهم .

و مع ضخامة هذا المعجم و اتساعه يقول الأزهري إنه لم يذكر فيه إلا ما صح من سماع ، أو ما كان من رواية عن ثقة " و لم أودع كتابي هذا من كلام العرب إلا ما صح لي سماعاً منهم أو رواية عن ثقة أو حكاية عن خط ذي معرفة ثاقبة ...."

2 . 1 . منهجه

اتبع الأزهري في تقسيم كتابه المنهج الذي وضعه الخليل في معجم العين جملة و تفصيلا ، فرتب مواد اللغة وفق مخارج الحروف فبدأ بالأعمق مخرجا حتى وصل إلى الشفتين ، فلم يبدأ بالهمزة و أخّرها إلى نهاية الترتيب مع حروف العلة ، و إخر الهاء بعد الحاء و بدأ بالعين مثلما فعل الخليل .

و اعتمد نظامي الأبنية و التقاليب و نبه إلى المستعمل و المهمل منها .

أما فيما يخص عدد الأبنية فجعلها ستة عكس كتاب الخليل فجاءت على الشكل التالي :
- الثنائي المضاعف .
- الثلاثي الصحيح .
- الثلاثي المهموز .
- الثلاثي المعتل اللفيف .
- الرباعي .
- الخماسي .

خلاصة :

لم يأتِ معجم التهذيب بجديد في منهج التأليف المعجمي ، بل اتبع منهج الخليل سواء في ترتيب الحروف أو في التقليبات الصوتية ، إلا أنه قام ببعض التعديلات في الأبنية .

المحور الثالث : عيوب المدرسة الصوتية

1 - الانتقادات الموجهة إلى المدرسة الصوتية

1 . 1 . مقدمة

تؤلف كتب العين و البارع و التهذيب و المحيط و المحكم و مادام حولها من معاجم مدرسة واحدة في تاريخ المعجمية العربية . و الرابط المشترك الذي يجمعها هو ترتيبها حروفىالهجاء بحسب مخارجها و جعل هذا الترتيب أساس تقسيمها إلى كتب ، ثم تقسيم هذه الكتب إلى أبواب تبعا للأبنية ، ثم ملء هذه الأبواب بالتقاليب .
و كان من أثر المنهج الذي سارت عليه هذه المدرسة أن وقعت في بعض الأخطاء و المآخِذ ، و التي ظهرت بشكل بارز في الكتب الأولى ، و حاولت الكتب الأخيرة إن تُلَطِف منها كثيرا .

1 . 2 . أهم الانتقادات الموجهة لمعاجم هذه المدرسة

أ . أول هذه المآخذ صعوبة البحث فيها ، و مشقة الاهتداء إلى اللفظ المراد ، و استنفاد الوقت الطويل من الباحث نظرا لانتهاجها النهج الصوتي ، و ذكر الكلمة و تقليباتها في مكان واحد . و كثيرا ما وقع المؤلفون أنفسهم في أخطاء تلك الخطوات ، و ذلك بوضع كلمة في غير بنائها أو اعتبار حرف مزيد أصليا ، أو العكس ، أو ما إلى ذلك مما يستحيل معهىعلى القارئ الوصول إلى طِلْبَته .
و لعل الصعوبة ترجع إلى ضعف المَلَكَة بانتشار العربية في مواطن متعددة .
ب . إهمالها بعض الأبنية المستعملة في اللغة .
ج . بعض الملاحظات الصرفية الاشتقاقية ، كالحكم بإبدال حرف و هو غير مبدل
د . وقوع التصحيف بسبب إهمال نَقْطِ الحروف في الكتابة ، فالحروف تنقسم إلى مجموعات تتشابه في الصورة و لا تختلف إلا بنقطة أو اثنتين أو ثلاث من فوقها أو تحتها .

انتهى درس المدرسة الصوتية
و هو آخر درس في المقرر
بالتوفيق و السداد للجميع